رشيد رضا واعجاز القرآن

للدكتور : أحمد الشرباصي

يعنى رشيد فى « تفسير المنار » بالنواحى البلاغية ، وينص على أن هذا التفسير ينبه الى عجائب من بلاغة القرآن فى كل جزء لا تجد مثلها فى غيره من التفاسير ، ويذكر ضروب ايجازه ، ومعانى مفرداته ، وتحديد الحقائق فى جمله .

وما دام رشيد يعنى بالناحية البلاغية فى التفسير ، فلابد من أن يعنى بالحديث الواسع عن اعجاز القرآن الكريم ، والى جوار الاشارات المتناثرة الى هذا الاعجاز القرآنى خلال أجزاء التفسير ، يعقد رشيد فصلا ممتدا لتحقيق وجوه الاعجاز فى القرآن ، فيما يقرب من عشرين صفحة فيذكر فيه أن القرآن معجز لجملة أسباب ، هى باختصار وايجاز :

١ ــ اعجازه بالاسلوب والنظم ، حيث اشتمل على النظم الغريب والاسلوب العجيب .

٢ ــ بلاغته التى تقاصرت عنها همم سائر البلغاء .

٣ ــ اشتماله على الاخبار بالغيب .

٤ ــ سلامته من الاختلاف والتناقض والتعارض .

٥ ــ اشتماله على العلوم الدينية والتشريع .

٦ ــ عجز الزمان عن ابطال شىء منه .

٧ ــ تحقيق القرآن لأشياء كانت مجهولة للبشر ، كالمسائل العلمية التى لم تكن معروفة (١) .

---

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ١٩٨ ــ ٢١٥ .

ورشيد رضا لم يكتف بالحديث عن اعجاز القرآن فى تفسير المنار ، بل تحدث عنه حديثا مجملا موجزا فى كتابه « عقيدة الاسلام » وقال ان هذا الاجمال فيه من الوجوه ما يمكن شرحه فى سفر أو أسفار .

ولقد تحدث رشيد عن كتابة الرافعى فى « اعجاز القرآن » ، فذكر جهده فى هذه الكتابة ، وقال عنه : « واذا كان قد انفرد ببيان نكت ودقائق لم تعرف لغيره ، فقد جلى بعض ما سبقه اليه من النكت والوجوه من قبله ، بعبارة مؤثرة بما ألبسها من حلل الخيال ، حتى تجلت فى أروع مثال ، وثم مباحث مفيدة فى هذا الباب ، تراها فى الفصول الكثيرة من الكتاب . ولذلك يصدق على صاحبه المثل السائر : كم ترك الاول للآخر .

ولكن رشيدا يدرك عن وعى أن وجوه الاعجاز فى القرآن الكريم — اذا أريد لها الاحصاء والاستقصاء بالتفصيل والتحليل — لا تدخل فى نطاق الامكان لفرد ، ولذلك كتب فى اعجاز القرآن كاتبون ، ويكتب فيه كاتبون ، وسيكتب فيه على مر الايام كاتبون ، ووجوه اعجازه كثيرة يعقل منهـا كل ذى علم وبصيرة ما يتوجه اليه ذهنه ، مما استعد لادراكه عقله .

ولذلك يعود رشيد ليقول : بعد هذا كله نقول أنه بقى لى من وجوه الاعجاز ما لم يغص المؤلف بحره ، حتى يستخرج درره . ويقول : والتحقيق أن اعجاز القرآن بمعانيه من الهداية والعلم أعظم من اعجازه بفصاحة عبـارته وبلاغة أسلوبه ، وهى التى كانت سبب بقاء الدين فى العرب والعجم ، بعد أن قل من يذوق طعم هذه البلاغة (٢) .

التفسير بين الامام وخليفته :

يذكر الشيخ محمد أبو زهرة أن الاستاذ الامام كان يقرأ كثيرا من التفاسير ، حتى أنه يقرأ نحو خمسة وعشرين تفسيرا ، ما بين مطبوع ومخطوط ، ولـكنه لا يتيه فيما يقرأ ولا ينقل ما يطالع ، بل يستعين بمجموع هـذه التفاسير على الوصول الى لباب المعنى (٣) .

وكتب الدكتور عثمان أمين مقالا عن طريقة الاستاذ الامام فى تفسير القرآن الكريم (٤) ذكر فيه أن الامام كان يميل فى التفسير الى أخذ آيات القرآن جملة ، ويرى أنه اذا كنا بحاجة الى معرفة أسباب النزول فى آيات الاحكام فان معرفة الوقائع والحوادث التى نزل فيها الحكم تعين على فهمه .

ولا بد فى التفسير من الذوق السليم ، وما يتبعه من لطف الوجدان ودقة الشعور اللذين هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدين ، ومقتضى هذا أن ينفذ المفسر الى روح القرآن .

ولقد أعجب الاستاذ عباس محمود العقاد بهذا المقال ، وكتب عنه مقالا جاءت فيه العبارة التالية :

---

(٢) انظر تقديمه لكتاب منهج الامام محمد عبده فى تفسير القران الكريم ، ص (ط) .

(٣) انظر مجلة منبر الاسلام ، عدد جمادى الاولى سنة ١٣٨٣ هـ .

(٤) تفسير المنار ، مجلد ١١ ص ٣٥٢ .

« للقرآن الكريم حكم غير سائر الاحكام ، لأنه يتطلب من المفسر أن يعرف له مقاما واحدا فى جملته ، يخالف به كل مقام ، وهو مقام الرسالة الالهية التى يرتبط بعضها ببعض ، وتنتهى ظواهرها كلها الى باطن واحد توافقه جميع الاجزاء من السورة والايات ، متفرقات ومتصلات .

ولا ينسى المفسر هذا المقام المجمل على اختلاف المناسبات ، واختلاف مقام القول فى كل آية وفى كل حكم من أحكام يتواتر فى تفصيل آياته » .

ويقول العقاد هذا تأكيدا لاستحسانه طريقة الاستاذ الامام فى التفسير ، وقد عبر عن هذه الطريقة بقوله :

« هى فيما نرى أحدث أساليب التفسير وأسدها من الوجهتين الدينية والبلاغية ، وخلاصتها فى كلمات معدودات أن الاستاذ الامام كان أقدر المفسرين المحدثين على فهم كل مقام من مقامات الوحى الشريف ، وذلك مقصد بعيد الامد فيما يرجع الى فهم الوحى الالهى على التخصيص .

وانما يعينه على أن يدرك وحدة الوحى فى جملته ، كما يدرك مقاماته أو مناسباته فهما منه لموقعه من السامع ، وللحكمة المقصودة بتوجيه الخطاب اليه » (٥) .

ومما تقدم نفهم أن الميزة الواضحة فى تفسير الاستاذ الامام هو النظر الى القرآن الكريم عند تفسيره على أن آياته وحدة ، فينبغى أن تفسر جملة ، لا آية آية ، وأن استقامة هذا النظر تحتاج الى عقل وذوق ولطف وجدان مع سعة بحث .

والانصاف يقتضينا أن نعترف لرشيد منا بأنه نظر الى القرآن هذه النظرة — مع الفرق الموجود طبعا بين الاستاذ وخليفته — ولذلك نراه فى الغالب يضع للسورة عند البدء فى تفسيرها — مقدمة تتحدث عنها بصفة عامة ، فيذكر أغراض السورة ومقاصدها وأحكامها ، والملامح الغالبة عليها ، وقد يعود فى آخر السورة الى ذكر خلاصة لها ولمقاصد هاواهدافها ، وهو فى تلك الخلاصة يبذل جهدا عنيفا ، وها هو ذا يكتب الى صديقه شكيب ارسلان فيحدثه عن الجزء العاشر من « تفسير المنار » بقوله :

« واتفق أن تمت فيه سورة براءة (التوبة) وعلى أن أراجعه كله ، لأستخرج منه مسائل السورة الكلية من أصول وفروع وغيرها ، وهذا أشق عمل فى التفسير ، ولم أسبق الى مثله » (٦) .

ولو رجعنا مثلا الى تفسير رشيد لسورة (الاعراف) لوجدناه قد بسط تفسيرها فى مئات من الصفحات تقارب الثمانمائة صفحة ، ثم يصوغ لها خلاصة فى ثنتين وعشرين صفحة (٧) .

وهو لا يفسر القرآن كلمة كلمة ، ولا آية آية ، بل يذكر طائفة من الآيات

---

(٥) انظر مجلة الازهر عدد جمادى الاخرة سنة ١٣٨٣ هـ .

(٦) السيد رشيد رضا ، ص ٦١٥ .

(٧) تفسير المنار ، ج ٩ ص ٥٥٩ — ٥٨٠ .

يجمعها غرض مشترك ، ثم يتحدث عنها بصفة عامة ، وان كان التفسير يقتضيه أحيانا أن يتعرض لمعانى بعض الالفاظ ، أو يطيل الوقوف عند أجزاء معينة من الآيات .

ورشيد نفسه قد أخذ على نفسه العهد بعد أن انتهى من النقل عن الامام بأن يسير على طريقته فى التفسير ، فقال : وسنستمر فى التفسير على هذه الطريقة التى اقتبسناها منه ان شاء الله تعالى . ثم أظهر تواضع التلميذ أمام الاستاذ ، فأضاف عقب ذلك قوله : وان كنا محرومين فى تفسير سائر القرآن من الفوائد والحكم التى كانت تهبط من الفيض الالهى على عقله المنير (٨) .

ورشيد أيضا يستخدم عقله فى التفسير ، ويطيل تدبره للآيات فى كثير من الاحيان ، حتى يستخرج منها المعانى الملائمة لجلال القرآن من جهة ، والمذكرة بسنن الله الثابتة المطردة فى الكون التى لا ينكرها عاقل من جهة أخرى ، ولذلك كثرت اشاراته الى هذه السنن الكونية (٩) .

وليس معنى هذا أن رشيدا تابع شيخه خطوة خطوة بلا مخالفة أو زيادة ، لأن رشيدا نفسه قد ذكر فى مقدمة « تفسير المنار » أنه لما استقل بالعمل فى التفسير ، بعد وفاة الشيخ محمد عبده ، زاد على منهجه التوسع فيما يتعلق بالاية من السنة الصحيحة ، سواء كان تفسيرا لها أو فى حكمها ، وفى تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية ، والمسائل الخلافية بين العلماء ، وفى الاكثار من شواهد الايات فى السور المختلفة ، وفى بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين الى تحقيقها (١٠) .

ويرينا رشيد رضا الوانا من اطلاعه على العلوم المادية كالطبيعة والكيمياء وعلم النبات وعلم الحيوان ، حيث يستشهد بكثير من هذه العلوم فى مواطنها المناسبة من التفسير ومن شواهد ذلك أنه أورد محاورة بين تلميذ وشاب وشيخ يتحدث فيها عن حياة الله عز وجل ، بأسلوب قريب من الافهام ، ولكنه يتحدث عن عناصر الهواء وعناصر الارض وعن المواد المختلفة ، وعن الفرق بين حياة النبات وحياة الحيوان وحياة الانسان (١١) .

ويحدثنا الشيخ محمد أبو زهرة عن مدى التشابه والاختلاف بين تفسير الاستاذ الامام وتفسير السيد رشيد رضا ، فيقول :

« لقد تكونت مدرسة من العلماء والمثقفين تطلب علم الامام وترويه وتنشره ، ومن أقوى هذه المدرسة تأثرا بالامام السيد رشيد رضا رحمه الله وعفا عنه ، فهو راويته وناقل علمه الينا نحن الذين لم نستمع الى الامام ، وان استمعنا الى صحابته المخلصين له .

ولا شك أن السيد رشيد الذى سار فى تفسير الامام بعد أن قبضه الله تعالى اليه ، قد حاول حكاية طريقة الشيخ ، ولكن طريقة الامام كانت طاقة

---

(٨) تفسير المنار ، ج ٥ ص ٤٤١ .

(٩) انظر على سبيل المثال تفسير المنار ، ج ١ ص ٦ ، ٧ .

(١٠) تفسير المنار ، ج ١ ص ١٦ .

(١١) تفسير المنار ، ج ٣ ص ٢٦ — ٢٨ .

نفسية ، وليست منهاجا فقط ، ولذلك لا نجد فى الاجزاء التى أتمها السيد التغلغل الذى كنا نراه فى المنقول عن الامام .

ولكن تفسير المنار قد اشتمل على أمرين لم يكونا فى تفسير الامام :

أولهما العناية بدعم التفسير بالمأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك بلا ريب خير كله .

وثانيهما النقل الكثير عن المفسرين ، وان السبب فى ذلك أن الامام كان يلقى درسا ، فكان يلقى ما يتمثل فى عقله وقلبه ، مما قرأ وتأمل وتدبر فى القرآن ولأن كل همة نفسه كانت متجهة الى لباب القرآن (١٢) .

والشيخ أبو زهرة يرى قريبا من هذا الفرق بين الاستاذ الامام والسيد رشيد فيما نقله رشيد عن أستاذه ، فيقول : وأحسب أن النقل كان مقربا لما قاله الامام ، وليس محققا لكل ما قال ، ولا مصورا لكل ما أراد (١٣) .

ولا شك أن انصراف الاستاذ الامام الى تدبر القرآن كان أوسع وأعمق وأوثق من انصراف رشيد ، فقد شغل رشيد نفسه بشواغل كثيرة أرهقته وبعثرته ، ولم يتوافر لديه من الطاقة ما توافر لدى هذا العقل العبقرى المتألق : عقل الاستاذ الامام ولكن ليس معنى هذا أن نبخس رشيدا حقه ، أو أن نهون من جهده ومكانته فى التفسير .

وما أشبه الاستاذ الامام بالذى أعطى البذور ، أو ألقاها فى التربة المخصبة وما أشبه رشيد بتلك التربة التى أنبتت وأعطت الكثير من الثمر والحصاد ، أو نقول : ان الشيخ كان كمن يشق الطريق الجديد ، ويضع على جانبيه أعلاما وصوى هنا وهناك ورشيد كان يعبد الطريق ويوسعه ويصلحه ، ويغرس على جوانبه بواسق الاشجار ، أو نقول ان الشيخ قد وضع المنهاج ، وضرب له طائفة من النماذج ، ورشيد أخذ فى تطبيق المنهج فأفلح فى الكثير من هذا التطبيق .

ويمكن أن ألاحظ — مع اجلالى لمكانة الاستاذ الامام ، واعجابى الشديد بعبقريته فى التفسير — ان تفسير السيد محمد رشيد رضا يظهر فيه بوضوح ما يلى :

١ — التوسع فى شرح معانى الكلمات الغريبة ، والعبارات اللغوية ، مع العناية بالجوانب البلاغية ، والتعرض أحيانا للقواعد النحوية ، وايراد شواهد أو نصوص من كتب اللغة والادب والشعر .

٢ — التوسع فى الاستعانة بالاحاديث النبوية والاثار الواردة المتعلقة بالسور ، أو الاية .

٣ — ذكر مقدمات للسور ، وذكر خلاصات لها ، وهذه ناحية مهمة جدا ، وهى تحقق منهج النظر الى السورة كوحدة تحقيقا واسعا .

٤ — التوسع فى الرد على شبهات المعاندين والمجادلين من الجهلة أو الملاحدة أو الضالين .

---

(١٢) انظر المقدمة لكتاب منهج الامام محمد عبده فى تفسير القران الكريم ص (ط) .

(١٣) المرجع السابق .

٥ ــ الاستعانة بالعلوم الطبيعية والمادية ومعارف العصر فى تقريب معانى التفسير وخاصة فى المسائل العلمية والاجتماعية .

٦ ــ ذكر المسائل الخلافية ، وترجيح بعض الاقوال فيها على بعض ، أو الاتيان برأى آخر فيها ، ويصحب ذلك غالبا شىء من التأويل أو التخريج ، مع احتفاظ رشيد بسلفيته .

٧ ــ التخفيف بعض الشىء من الركون الى حكم العقل فيما قد يعلو على ادراك هذا العقل .

٨ ــ الاكثار من قرن الايات بما يمثلها من آيات أخرى فى القرآن أخذا بمبدأ تفسير القرآن بالقرآن .

٩ ــ الاستطراد الى موضوعات يفيد العلم بها ، وان لم تقو المناسبة بينها وبين المقام الذى سيقت فيه .

١٠ ــ أسلوب رشيد أقرب وأخف ، واشتغاله بالصحافة والسياسة له دخل فى ذلك وأما أسلوب الاستاذ الامام فانه أوسم وأحكم .

١١ ــ رشيد يجنح الى التطويل والاسهاب ، واستاذه يميل الى التركيز والايجاز .

١٢ ــ رشيد ينقل كثيرا من النصوص التى يريد الاستشهاد بها من أقوال المفسرين وغيرهم ، لأنه يطالع ويراجع ، ثم يكتب ويؤلف وبين يديه مصادره ومراجعه ، على حين كان الاستاذ الامام لا يفعل مثل هذا لأنه يلقى درسا يعتمد فيه غالبا على ذاكرته .

١٣ ــ التنبيه فى أدب ووفاء على بعض ما يحتاج الى النظر أو المراجعة من كلام الاستاذ الامام .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

واذا كان الاستاذ الشيخ محمد أبو زهرة قد بدا معتدلا فى رأيه عن الاستاذ الامام وخليفته ، فان الدكتور طه حسين يبدو عنيفا ، فلقد سألته عن رأيه فى رشيد وتفسيره ، فقال : لقد كنت ضده ، وخاصة بعد وفاة الشيخ محمد عبده لأن الشيخ رشيد استمر ينشر تفسير القرآن منسوبا الى الامام ، وأنا مقتنع كل الاقتناع أن ما نشره الشيخ رشيد بعد وفاة الامام منسوبا اليه ليس من كلام الامام ، لأننى حضرت درسين من دروس الشيخ محمد عبده ، لم أدركه الا فيهما ، وقد سمعته أول ما سمعته ، وهو يفسر قوله تعالى من سورة النساء : « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجزبه ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا » .

هكذا تحدث الدكتور طه ، والاية التى ذكرها هى من أواخر الايات التى فسرها الاستاذ الامام ، لأن رقمها حسب عد المصحف الذى اعتمد عليه رشيد هو مائة واثنان وعشرون ، ورقم آخر آية فسرها الاستاذ الامام هو مائة وخمسة وعشرون .

وكذلك قال لى الدكتور طه : ان الشيخ رشيدا كان فى تفسيره يريد أن يعتقد الناس انه هو لسان الشيخ محمد عبده .